

أغداً طابئة في تعريف «الأدب القومي»

بقلم نازك الملائكة

يكذبون على الروح العربية في كل حرف يسطرونه .
والواقع ان القومية في الادب اكبر واوسع من ان
تتمثل في مجرد الموضوع الذي يتناوله الكاتب . وانما
الادب القومي هو الذي يعبر تعبيراً اصيلاً عن الروح
العربية بكل ما لها من عفوية وانطلاق . انه يمثل ، دون
ان يقصد ، لفتات ذهن الامة العربية وملامح شخصيتها
الفكرية والروحية . وهو يحمل طابعها الشعوري
ومستواها العاطفي والصفات العامة لشخصيتها . وهذا
كله قابل لان يتجسد سواء اتحدث الكاتب عن القومية
ام لم يتحدث . وانما العلاقة بين الادب القومي والموضوع
الذي تكتب فيه علاقة عارضة لا شأن لها . فالعروبة
اوسع من مجرد حديثنا عنها . انها تكمن في خدودنا
واهدابنا ودمائنا وهي تجري مشتعلة في كلماتنا . ان
اي ادب نكتبه ، في اي موضوع ، ينبض بها ويشير
اليها . ولعل اصدق الادب قومية هو الادب الذي لا
يدري انه قومي . كالطفل العربي الذي يتلقى انطباعاته
في بيئة عربية ، فلسوف تنطق العروبة في كل ما يقول
ويفعل سواء اعرف ام لم يعرف .

(ثانياً) والخطأ الثاني الشائع في تعريفات الكتاب
للادب القومي هو الاساس المثالي الذي تبني عليه النظرية
الى ذلك الادب . ان اغلب الادباء الذين حاولوا تشخيص
ملامح الادب القومي قد اشتقوا لادبنا صورة نموذجية
راوا انه ينبغي ان يكون عليها . وهم في هذا يتخطون
الصفات الحقة للروح العربية ، ويحاولون ان يفرضوا
عليها صفات اخرى لا تملكها . ان نظرهم مثالية لا واقعية ،
والادب القومي الذي يخرجون به الينا ادب مرسوم رسماً
ولا صلة له بالحياة العربية الواقعة .

اما المصادر التي يشتق منها الكتاب عادة ملامح
الادب القومي النموذجي فابرزها مصدران اثنان :
(الاول) هو تمنيات هؤلاء الكتاب واشتغائهم المتحرقة .
انهم ، بدلا من ان يصوغوا ادبا قومياً يمثلون به انفسهم ،
يلجأون الى الاحلام والتمنيات فيروحون يرسمون صورة
لادب هابط من سماء خيالية ، فيه الخصائص التي
يتمنونها . والملاح التي يظنونها احسن الملامح للادب
القومي . وهؤلاء لا يعلمون ان القومية الحقة موجودة في
انفسهم لا في السماء . وهم يجهلون ان الادب القومي
كامن في عفوية اقلامهم ، فاذا كتبوا ببساطة كانوا كتاباً
قوميين على اجمل ما يشتهون . وانما يحرموننا من ذلك
الادب لمجرد انهم يتغافلون عن كنوزهم ويستميضون عنها
بالاشتغاء . انهم يمتلكون ما يتعطشون اليه لو انهم نظروا
فقط . فليتطلعوا الى انفسهم . انما يكمن الادب القومي
هناك .

ولسوف نصل - اذا نحن تأملنا - الى الاعتقاد بان هناك فرقا
شاسما بين الادب القومي الحق والادب الذي يظن كتابنا انه الادب
القومي الحق . ان « ما ينبغي ان يكون » ليس الا صورة لتمنيات

لعمل الموضوعات التي يكثر الكلام فيها هي دائما اخرج الموضوعات
واكثرها مزائق . ذلك ان جوانبها تصبح - بسبب كثرة المتحدثين
فيها - مثقلة بعشرات من الانطباعات والملاح المفضلة . ولقد يسري
خطا ما وتنقله الاوساط حتى يصبح رايها متعتنا طائفا لا يجرؤ احد
على مناقشته . والحق ان للاغلاط الشائعة جيروتا وظيفيان بحيث
يحتاج المرء الى ان يكون جريئا كل الجراءة اذا هو اراد ان يصيح في
وجهها ويحتج عليها . ولكن للحقيقة صولة ، ولا بد لكل خطا جسيم
ان ينهار يوما امام معول الحق .

ولقد كان موضوع الادب القومي احد هذه الموضوعات الشائعة
التي اثارت اهتمام الجماهير والادباء والمفكرين العرب جميعا فكثرت
الفضجة حوله حتى اصبح اصطلاح الادب القومي لفظا ضبابي الوقع
مبهم المعنى يتيه الفكر في ممراته ودهاليزه . ولقد يكون صعبا ان
نجد اليوم اديبين عربيين يتفقان على مضمون واحد للاصطلاح . ولعلنا
كلنا ننصرف عن تعريف اللفظ بشيء من الفيض والضييق . فسرعان
ما نصطدم بالاراء الشائعة التي تحاول ان ترغمنا ارغاما على ان نقبلها
ونلوي اعناقنا لها . فكان هذه الاراء طافية يحكم بامرهم فلا بد لنا
ان نخضع لاحكامهم ونزواتهم مهما رفضنا تفكيرنا .

ولقد اتيج لي ان اقرا - خلال السنين الماضية - كثيرا مما كتب
الكتاب حول «الادب القومي» وما ينبغي ان يتصف به ، فكان انطباعي
المستمر حول التعريفات الشائعة انها ، على العموم ، تضييق الفكرة
الحقة للقومية وتنزل بها الى مستوى اصفر منها واطلا . وقد لاحظت
ان ذلك « التضييق » يبرز على ثلاثة اوجه ساتناولها فيما يلي
بالشرح والتفقد :

(اولاً) لقد الف اغلب كتابنا ان يتحدثوا عن الادب
القومي وكأنه يتجلى في الموضوع الذي يتناوله الذي يتناوله الكاتب
العربي . فاذا تناول الاديب قضايا القومية تناولا مباشرا
عدوه ادبا عربيا يمثل الفكرة القومية حق التمثيل . واما
اذا لم يكتب في تلك الموضوعات فانه في نظرهم ليس
ادبا قومياً ، وما يكتبه بعيد عن الادب القومي . وهذه
النظرة تجعل المظهر الايجابي للقومية هو التحدث فيها
تحدثنا صريحا فنحن ، عندها ، قوميون اذا نحن كتبنا في
القومية ، ولسوف نصبح غير قوميين حين نكتب في اي
شيء اخر غيرها .

ان هذه الفكرة ، في الواقع ، بعيدة عن العمق والحق
كل البعد . ذلك انها تقع في خطأ فلسفي جسيم هو
انها تنكر الجانب العفوي من القومية وتقيم في مكانه
تعويضا خارجيا مصطنعا . فهل حقا ان كل من يتحدث
في القومية يمتلك الروح العربية الصادقة ؟ وهل يفقد
الاديب العربي روحه القومية اذا هو لم يكتب على الاطلاق
في قضايا القومية ؟ ان الجواب على هذين السؤالين
يتضح اتضاحا كافيا حين نلاحظ العدد الكبير من الادباء
الطالعين الذي يكرسون ادبهم للكتابة في شؤون القومية
ولكنهم يكتبون بروح ادينية محضة تكاد تصبح صياحا
بانها ليست روحا عربية ولا صلة لها بجو العروبة . ان
حديث هؤلاء عن القومية لا يجعل انتاجهم قومياً ، وهم

فردية يحلم بها الكتاب للادب العربي . واما ما هو كائن ، ما هو الروح العربية الحققة ، فان صفته الكبرى هي انه عفوي وبريء وقد نبت بلا تصنع كما تنبت وردة برية زرقاء لم ينمدها الا المطر والنسيم الرطب وضوء الشمس . وهذا الادب سيكون قوميا سواء اقصدنا ام لم نقتصد .

اما المصدر الثاني الذي يشتق منه الكتاب صورة نموذجية للادب القومي العربي فهو المصدر الاكثر شرا والاشد وبالا على عروبتنا وشخصيتنا . انه ادب الغرب . فلقد الف كثير من كتابنا ان يعتقدوا ان في الامكان نقل كل شيء من الغرب الى الشرق . ولذلك قرروا ان ينقلوا معالم الادب من اوربا الى ارض العرب . ان هؤلاء الكتاب يتجاهلون الحقيقة تجاهلا مؤسفا . ولقد فاتهم ان الروح لا تنقل . واما الآلات الحديثة فهي لن تغير خلجة في مشاعر الفرد العربي الذي تكمن في عروقه روح الرمال والمدن العربية القديمة والتواريخ الدارسة . ان لنا نحن شخصية كونتها القرون السحيقة وترسبت فيها خلجات اجدادنا الذين جابوا اصقاع الوطن العربي قرونا وقرونا . ومتى كانت الحضارة المادية اكثر من شيء عابر ياتي ويذهب ويمضي ؟ وانما المهم هو ذهن الانسان وروحه . ونحن في الوطن العربي نختلف في بنائنا العقلي والروحي عن الاوروبيين ، بحيث يصبح من المستحيل ان ننقل روح الادب الغربي الى ادبنا دون ان نسحق الروح العربية ونحملها مالا تطيق . وانما نحتاج الامة العربية الى ان تكتب ادبها بقلها . ولن يجديها ان تستورد .

واما الصفة الكبرى التي ينبغي ان يتصف بها ادبنا القومي فهي صفة العروبة . ان ادبنا سيكون عربيا . وهذا هو القانون الاعلى للفكر القومي ومن خطل الرأي ان نبحت عن كمال آدابنا في شيء سواه . ونقصد بكلمة « عربي » ان تتجلى في ذلك الادب كل الخصائص العرفية غير الواعية التي تكون مقومات الذات العربية . فلن يكون ذلك الادب صورة لاحسن ما في آداب اوربا ، وانما سيكون صورة للذات العربية والحياة العربية . والعروبة ، على ما هي ، غنى وجمال وخصوبة ، لا نحتاج الى تزويقها ولا الى تمنى التمنيات لها .

وهكذا تكون الخطوة الاولى نحو كتابة ادب قومي ناضج للامة العربية ان نطلق انفسنا من عقالها فتركها تعيش عروبتنا وتعبّر عنها بلا تصنع ولا قيود . ان القانون الذي ينبغي ان يطبّعه الاديب القومي هو قانون ذاته . فما يميل اليه في اعماق نفسه هو الصواب ، مهما كانت آراء الغربيين الذين يقف امامهم مبهورا . انه عربي ، وتلك هي حدود ابداعه ، فمن ضعف الرأي ان يترك كنوزه دفينه ويمد يده يستحدي من ادب اوربا . وانما كان الادب الاوروبي اصيلا لانه كان اوربيا وعبر عن روح اوربا باخلاص . وكذلك لن يكون ادبنا العربي اصيلا الا يوم يكون عربيا .

(ثالثا) ثم نصل الى الخطأ الثالث الشائع في تعريف الادب القومي ، وهو يتجسم في الفكرة الساذجة المسماة بالالتزام . لقد شاعت هذه الفكرة شيوعا عظيما في السنوات العشر الماضية حتى خيل علينا ان الداعين اليها كانوا مستعدين لقطع عنق كل انسان يخطر له ان يناقشها . والحق ان الطغيان والارهاب اللذين لجأت اليهما هذه الدعوة قد كانا ولم يزالا ينمان عن ان منشأها شيوعي . ذلك على الرغم من ان كثيرا من القوميين قد اشتركوا ، ببراءة وحسن نية ، في ترويجها .

وملخص هذه الدعوة ان الاديب ، في انتاجه ، ينبغي الا يطبع دوافعه الفردية وانما يلتزم تصوير واقع المجتمع .

عليه ان يخرج من حدود نفسه ليخدم المجموع . وهما كان الارهاب الفكري الذي تسكت به هذه الدعوة خصومها فانها تبقى دعوة مهلهلة لا تصمد للنظرة المتأمل . والواقع انها ، من وجهة نظر المنطق والفلسفة ، ترتكز في جوهرها الى فصل شنيع بين الادب والحياة من جهة ، وبين المجتمع والفرد من جهة اخرى . فاذا كان واقع المجتمع شيئا لا تمثله حرية الفرد الحققة فما هذا المجتمع وما ملامحه ولماذا ينبغي ان نضحى بالفرد من اجله ؟ ومن قال ان هذا المجتمع ينبغي ان يكون اي شيء غير ملامح افراده ؟

ان هذين السؤالين في الواقع يلقيان الضوء على الجذور الفكرية الواهية التي ترتكز اليها دعوة الالتزام . ذلك انها ، عندما نحللها ، تتكشف عن خطأ جسيم في النظر الى الصلة بين المجتمع والفرد . انها تضع احدهما في دائرة منفصلة كل الانفصال عن دائرة الاخر ، بحيث اذا اراد الفرد ان يخدم المجتمع كان عليه ان يقتل حريته الذاتية اولا . فكان نوازع الفرد العفوية معادية بطبيعتها للمجتمع . ومن تفريعات هذا المعنى ان دعوة الالتزام تبدو وكأنها تفترض ان الواقعية التي تدعو اليها ليست صفة موجودة في نفسية الانسان وانما ينبغي ان يرغم الاديب ارغاما على اكتسابها وبذلك يكون اجتماعيا . ان انسانية الانسان ، على هذا ، ليست كافية لجعله واقعا وانما لا بد له ان يفصل لنفسه ثوبا خارجيا من هذه الواقعية المزعومة اذا هو اراد ان يكون قوميا .

من هذا التحليل الموجز للعناصر الفلسفية التي تتضمنها دعوة الالتزام ، في نظرنا ، يبدو لنا بجلاء ان القومية عند دعاة الالتزام هي النقيض الفكري للحياة . فالمرء اما ان يكون حيا ، متمتعا بالحرية الفردية والمعادة ، او ان يكون قوميا . ولذلك نجد هؤلاء الكتاب يخافون على الادب العربي الا يكون قوميا فيضعون له اسسا ومثالا وتعاليم يشتقونها من افكارهم المثالية عن المجتمع العربي دونما نظر الى الواقع الحق لذلك المجتمع .

ورأينا ان هذه الدعوة تعكس الحقائق الانسانية عكسا صريحا . فانما يتجسم واقع المجتمع حق التجسم عندما يعبر كل اديب عن ذاته دونما تصنع . ولسوف يكون الادب القومي واقعا حقا عندما يكتب كل اديب عربي في حرية كاملة . واذا ذلك ستصبح كلمة « الالتزام » كلمة منحطة يعدها الاديب القومي اهانة ادبية تطعن كرامة ذهنه وتهين عروبتة . ان العروبة ليست اتجاها قسريا يجب ان نتعلمه من الكتب والصحف ، وانما هي نحن ، بسلطاننا واندفاعاتنا . والانسان العربي هو القانون القومي الاعلى ، فلن يستمد مقاييسه من اقوال الملتزمين وانما سيشتقها من اعماق قلبه العربي النابض (*).

وبعد فهذه هي الاخطاء الشائعة التي لسنا في تعريف الادب القومي ، ونرجو ان يتاح لنا ان نتفرغ لدراسة المضمون الايجابي لذلك الادب في بحث نال .

نازك الملائكة

(* تعليق « الآداب » : كنا نود لو ان الكاتبة الفاضلة الانسة.

نازك قد اوردت او استشهدت بالمصادر التي رجعت اليها والتي توحى حقا بهذه الافكار عن مبدأ « الالتزام » ، فربما حالت بذلك دون الالتباس الذي لا بد للقارئ ان يقع فيه هنا .